الفصل الثانى
العربية المثالية وأطوارها

تمهيـــد:

ذكرنا فى حديثنا الماضى موجزا عن لغات البشر وتعدد فصائلها ومظاهرها والشعوب الناطقة بها وتقسيمات العلماء لها. وتناولنا بينها الحديث عن الساميين ولغاتهم، ومنهم العرب، الذين خصصناهم بمزيد من البحث الواسع، لأننا بصدد بيان طبيعة اللغة العربية، وخصائصها وسماتها العامة والخاصة.

وسنعطى – هنا – لمحة عامة عن اللغة العربية منذ نشأتها على لسان القبائل العربية القديمة وتفرعها إلى لهجات فى شمال الجزيرة وجنوبها، وكيف اختلف بعضها عن بعض، ثم نفصل الحديث عن نشأتها ومصادرها الأولى ثم نتتبعها فى مراحلها التاريخية التى زاد انقسامها فيها حتى ائتلفت فى لغة عامة أصبحت الملاذ لكل عربى يعبر عن حاجات نفسه وخلجاتها وأصبحت الأداة الفعالة التى يستعملها العرب فى كل مكان من أرضهم ثم انطلقت تدخل البلاد التى فتحوها.

وسنتتبع – فى هذا العرض التاريخى – ما صادفته من عوامل مختلفة تركت آثارها عليها اتساعا وقوة أو ضيقا وضعفا حسب العصور التاريخية التى مرت بها وتقلباتها عليها.

ومن هنا نستطيع أن نقف على مدى الأصالة فى لغتنا العربية والتغيرات التى طرأت عليها، واهتمام أهلها بها قديما وحديثا وحال الناطقين بها اليوم.

وذلك يؤكد صلة الأجيال العربية بعضهم ببعض وصلتهم بلغتهم التى نزل بها كتاب الله المبين، ويؤكد أثر الزمن وعوامل البيئات العربية التى اختلفت عليها فى كل مكان من الأرض العربية، والأحداث التى مرت بها، وأثرها فيها.

وسوف نتناول ثلاثة أمور:

الأول: أصل العربية وأول من تكلم بها.

الثانى: نشأتها ومصادرها الأولى.

الثالث: أطوارها.

١- أصل العربية وأول من تكلم بها

هناك ثلاثة آراء:

١- قيل نشأت العربية على لسان يعرب بن قحطان، فهو أول من تكلم بها ثم انتقلت منه إلى العرب الباقية لأن العرب البائدة، كعاد وثمود، وطسم وجديس كانت قد بادت ولم يبق لها أثر قبل الإسلام ثم انتقلت العربية من الجنوب إلى الشمال لاسيما بعد هجرة أخيه جرهم إلى العدنانيين من ذرية إسماعيل - عليه السلام - وكان إسماعيل قد أصهر إلى العرب المقيمين بهذه الجهة وأرسل إليهم بعد أن أنزله أبوه الخليل هناك مع أمه هاجر.

ولذلك يقولون عن يعرب إنه سمى بهذا الاسم لأنه أول من انعدل لسانه عن السريانية إلى العربية، وقيل: أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان وتذكر بعض الأخبار أنه نودي من قبل السماء فكان أول من تكلم بالعربية المبينة وفسرت الآية الكريمة (بلسان عربي مبين) على أن المراد باللسان: لسان جرهم (١).

٢- وقيل: أول من تكلم بالعربية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، بعد أن نسي لسان أبيه إبراهيم العبرى، وينسبون إلى الرسول ﷺ أنه تلا قوله تعالى: ﴿ **قرآنا عربيا لقوم يعملون** ﴾ ثم قال: ألهم إسماعيل هذا اللسان العربى إلهاما، كما ينسبون إليه ﷺ أنه قال: أول من فتق لسانه بالعربية المتينة إسماعيل عليه السلام وهو ابن أربع عشرة سنة(٢).

ويدعى باحث حديث(٣) أن العربية كانت لسان إبراهيم عليه السلام واستنبط ذلك من حديث رواه البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس رضى الله عنهما، أبان عن أمر الخليل بمكة وأفاض فيه(٤).

ومعنى ذلك أن العربية متأصلة فى إبراهيم وولده إسماعيل، فهما من أول المتكلمين بها مما يعد دعما لهذا الرأى.

---

(١) المزهر ١/ ٣١، ٣٢.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٧، ٣٢، ٣٤.
(٣) هو الأستاذ: على الخطيب.
(٤) مجلة اللسان العربى ج١ المجلد الثامن ص٤٧ - ٤٩.

٣- العربية كانت لسان العرب الذين بادوا قبل الإسلام وانطمس تاريخهم كعاد وثمود وغيرهم ممن أشرنا إليهم فيما سبق، وقد ظلت على لسان بقاياهم لأن هذه القبائل لم تهلك عن آخرها بل بقى منها قليل تناسلوا وكثروا وأنشأوا العرب الباقية فى جنوبى الجزيرة.

ثم كانوا النواة للعرب الباقية العدنانية الذين يعد إسماعيل عليه السلام أبا لهم.

ونحن نلاحظ أن الرأى الأول غير سديد، فيعرب سليل قحطان الذى وفد من العراق إلى اليمن أيام كانت ذات خير وفير فحكمها، ثم خلفه فى ذلك ابنه يعرب، وليس - كما تذكر الروايات المتضاربة التى ينقلها السيوطى فى المزهر من أن عرب اليمن وحمير من قحطان، أو أن قحطان من سلالة إسماعيل، وإذا كان قحطان وافدا فليس من المعقول أن يترك ابنه لغته الأصلية وينطق بالعربية المبينة طفرة، بل المقبول أن يكون قد تحول عن لغة أبيه إلى العربية بعد أن تعلمها من أهلها، ويمكن أن يكون قد أجاد العربية، ولكن ليس هو أول ناطق بها.

كما نلحظ أن إسماعيل ليس عربى الأصل كأبيه فليس من المقبول تاريخيا أو علميا أن يكون أول متحدث يجيد العربية قبل أهلها الأصليين، ولكن يمكن أن يكون لسانه قد فتق بمجاورته للفرع اليمنى جرهم الذى نزح إلى شمال الجزيرة ومخالطة من لقيهم من عرب الشمال، أما أن العربية كانت لسان أبيه إبراهيم فهذا لا يكفى لإثباته مجرد استنتاج كهذا الذى أجراه الباحث الذى أشرنا إليه آنفا.

مع ملاحظة أن اللغات السامية لم تكن قد انفصل بعضها عن بعض فى هذا الأوان انفصالا كاملا، فمن المتوقع أن إبراهيم خاطب نساء إسماعيل بلغة تحوى كثيرا من ألفاظ السامية الأم وتراكيبها المشتركة من العبرية أو الآرامية وأختها العربية كما يتحدث أبناء الأمة العربية فى أقطارها المتعددة الآن متخذين من اللغة الفصحى زادهم الأساسى على الرغم من تعدد لهجاتهم.

ويتجه الرأى إلى أن العرب البائدة هم المنبع الأصيل للغة العربية، وقد بقيت على لسان من أفلت من الإبادة التى حقت عليهم لأنهم أربابها الأصليون، وقد بقيت منهم بقية تكاثرت على النحو المشارإليه، وقد ثبت من النقوش التى عثر عليها ما يؤكد ذلك التشابه القوى بين لغة هذه النقوش والعربية الباقية.

٢- نشأة العربية ومصادرها الأولى

يهمنا أن نلقى بعض الضوء على اللغة العربية أول ما عرفها الإنسان العربى وكيف تدرجت منذ طفولتها حتى بلغت درجة كبيرة من الرقى والكمال.

والواقع أن تاريخ اللغات يحيطه الغموض لتغلغله فى أزمان سحيقة ولذلك لا نكاد - على وجه التحديد - نعرف عصر الطفولة للغة ما على نحو واضح ودقيق.

واللغة العربية هى أقدم تلك اللغات الكثيرة التى بسطت نفوذها على رقعة متسعة من الأرض، ودرجت عليها فهى - كغيرها من اللغات - لا نكاد نعرف شيئا مفصلا عن حياتها الأولى.

والتاريخ يذكر أن أصحاب تلك اللغة ينحدرون من ولد سام بن نوح عليه السلام وهم عاد وثمود وجرهم الأولى ووبار وغيرها ثم انتقلت من بقاياها بعد أن انقرضت إلى بنى قحطان، فنشأت منها الحميرية لغة أهل اليمن، ثم انتقلت من الجنوب إلى الشمال فتعلمها أولاد إسماعيل عليه السلام بالحجاز [١].

وقد نشأت العربية - على ما يبدو - ضعيفة محدودة فى ألفاظها وتصرفاتها لأن مظاهر الحياة - آنذاك - كانت محدودة، وفى غضون قرون عديدة تشعبت حاجات أهلها، وكثرت متطلباتهم تبعا لنموهم المطرد، وتنقلاتهم فى موطنها (شبه الجزيرة العربية) من مكان إلى آخر، وهذا يدعو إلى ابتكار لغوى جديد يعبر عما يريدون من رغبات، فكثرت الألفاظ والتصرفات اللغوية وظهرت لهجات عربية فى أماكن متفرقة، وبهذا تكون اللغة قد دخلت مرحلة أخرى هى مرحلة الصبا.

ولم يكن هذا التجديد والابتكار مجرد تقنين مطلق، بل كان يسير حسب الاتجاه العربى العام شأن أى مجموعة إنسانية تحكم تصرفاتها ولغاتها ظواهر لغوية متشابهة، وهذا ما يشير إليه ابن جنى فى خصائصه حين يقول: «وكيف تصرفت الحال، وعلى أى الأمرين كان ابتداؤها، فإنها لابد أن يكون وقع فى أول الأمر

---

(١) دراسات فى العربية وتاريخها للإمام محمد الخضر حسين ص ١٢٠، ١٢١.

بعضها، ثم احتيج فيما بعد إلى الزيادة عليه لحضور الداعى إليه فزيد فيها شيئا فشيئا إلا أنه على قياس ما كان سبق منها فى حروفه وتأليفه، وإعرابه المبين عن معانيه، لا يخالف الثانى الأول، ولا الثالث الثانى كذلك متصلا متتابعا وليس أحد من العرب الفصحاء إلا يقول: إنه يحكى كلام أبيه وسلفه، يتوارثونه آخر عن أول، وتابع عن متبع»[1].

ولا شك أن التقاء القبائل العربية بعضها ببعض فى الأسواق وغيرها كان عاملا مهما فى ذيوع الألفاظ والتراكيب، والاستعمالات اللغوية بينها.

ويقول بعض الباحثين المحدثين: إن اللغة حينذاك «لم تكن لها ضوابط ينطق الناس على منوالها بل كان كل فرد وكل قبيلة تنطق بما تشاء شأن اللغات فى مرحلتى طفولتها وصباها، وإن شئت قلت: فى مرحلتى جاهليتها الأولى والوسطى، وهما مرحلتان تستنفدان آلاف السنين»[2].

ولكننى لا أتصور أنها كانت فى تلك الحقبة من التاريخ على أقصى درجات الفوضى الشاملة، بحيث تبتكر كل قبيلة ما تشاء دون السير فى الاتجاه المرسوم للقبائل العربية بوجه عام.

وقد أدى التقاء القبائل العربية وشيوع الأساليب إلى تهيئة الجو للاستقرار، والنضج اللغوى - بعد أن وصل القوم إلى درجة من الحضارة - فصارت اللغة أكثر استعدادا لظهور الضوابط والمقاييس، وبروزها كلغة كتابة وشعر، وتلك هى المرحلة التى يسميها الباحثون Proto Arabic[3].

ثم ارتقت اللغة قبل ظهور الإسلام، وفى صدره إلى درجة كبيرة من الكمال فوجدت «لغة مثالية مصطفاة موحدة جديرة أن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب لا عامتهم»[4] وبذلك «دخلت فى أهم دور يحق علينا أن نسميه عصر شبابها، فنمت عروقها، وأثرت غصونها بألوان مختلفة من الأساليب»[5].

وليس من السهل تحديد معالم هذه المراحل التى مرت بها العربية والزمان الذى قضته بطوله وامتداده ويلاحظ أن اللغة فى أثنائها لم تخرج عن موطنها

---

(١) الخصائص ٢/٢٨، ٢٩.
(٢) اللغة والنحو للأستاذ عباس حسن ص١٦.
(٣) المدخل إلى النحو العربى ص٣٣.
(٤) دراسات فى فقه اللغة ص٥٠.
(٥) دراسات فى العربية وتاريخها ص١٢٢.

الأصلى، فلما انطلق بها الإسلام إلى الأقطار المجاورة، واختلط العرب بغيرهم من الأجانب دخلت العربية مع غيرها من اللغات فى صراع، فبدأت اللكنة تدب إلى الألسنة، وعرف اللحن طريقه فى بعض الأوساط العربية.

وقد ظهر فى العصر الإسلامى كثير من الأخطاء حتى فى عصر الرسول ﷺ فقد «رووا أن النبى ﷺ سمع رجلا يلحن فى كلامه فقال: أرشدوا أخاكم فإنه قد ضل» ورووا أيضا أن أحد ولاة عمر رضى الله تعالى عنه كتب إليه كتابا لحن فيه فكتب إليه عمر أن قنع كاتبك سوطا، وروى أن مقرئا أقرأ أعرابيا قوله تعالى ﴿أن الله برىء من المشركين ورسوله﴾ بجر رسوله فقال الأعرابى برئت من رسول الله، وكان على رضى الله عنه حاضرا فأنكر ذلك ورسم لأبى الأسود من عمل النحو ما رسمه[1].

ولما كثر اللحن وخيف من تمادى ذلك فيستغلق كتاب الله (القرآن الكريم) على الأفهام «انتجع البادية من يهمه أمر اللغة لجمعها والحفاظ عليها، وكان ضمن هذه الطليعة الخليل بن أحمد وخلف الأحمر ويونس بن حبيب الضبى والأصمعى وأبو زيد الأنصارى ليأخذوا اللغة من منابعها الصافية ويتناولوها من الرجال الموثوق بفطرهم»[2] وقد سلك تسجيل هذا الجمع طرائق مختلفة حتى وصلت إلى لون من التأليف هو المعروف باسم المعجم[3].

وقد اهتم العلماء العرب بدراسة تلك الألفاظ المأخوذة عن العرب الخلص دراسة مستفيضة خرجوا منها بنتائج برزت فى شكل قواعد ونظم وهم بذلك لم يخترعوا شيئا من تلك القواعد، بل استنبطوا من الكلام العربى الأصيل خصائص الظواهر اللغوية المطردة.

العرب الذين تؤخذ عنهم اللغة:

ويسوقنا هذا إلى الحديث عن العرب الذين أخذ عنهم رواة اللغة، وتبعهم العلماء فى وضع القوانين العربية.

لقد تحرى العلماء الذين جمعوا اللغة، والذين وضعوا قواعدها من بعدهم

---

(١) الخصائص ٢/٨. (٢) المعاجم اللغوية د. ابراهيم نجا ص٧,٨.

(٣) انظر: كتابنا (علم اللغة بين القديم والحديث) ص٥.

اعتماد القبائل الفصيحة التى لم تختلط بالأعاجم، وهذه القبائل تتمثل فى تميم وقيس وأسد وطيء [١] وكانوا يسكنون شرقى الجزيرة وأواسطها، وهى قبائل بدوية يطلق على لهجاتها أحيانا (لغة نجد).

كما تتمثل فى القبائل التى كانت تسكن فى غربى الجزيرة (المدينة وما حولها ومكة وما يجاورها) ويطلق على لهجاتها (لغة الحجاز) وهى قبائل حضرية فهاتان المجموعتان الشرقية والغربية هما مصدر اللغة عند الرواة وواضعى القواعد العربية[٢].

والمتأمل للمجموعة الغربية يرى أن اللهجة القرشية التي اعتبر أهلها عربا خلصا كانت تضم بعض الظواهر الأعجمية لاتصال أهلها بفارس والروم وغيرهم، لأنها قبائل أخذت بمبادىء الحضارة، وأجرت علاقات وطيدة مع جيرانها، والمتعاملين معها.

ومن هنا حمل عبد المجيد عابدين على العلماء العرب فى عدم أخذهم عن القبائل المتطرفة[٣] للسبب السابق وقال: إن الأساس الذى سارو عليه فى قواعد اللغة يهدم أو يتنافى مع هذا السبب، ذلك أن لغة قريش على ما عرفت به من الفصاحة كانت شديدة التأثر بالمؤثرات الأجنبية [٤]. فإذا كان المقصود بفصاحة قريش تجلى روح البداوة فى لغتهم فذلك مالا نتفق فيه معهم لأن لغة قريش لم تكن لغة بداوة»[٥].

---

(١) المزهر ١ / ٢١١. (٢) المدخل إلى دراسة النحو العربى ص٤٤، ٤٥.

(٣) ذكر السيوطى فى المزهر ١ / ٢١٢ إنه لم يؤخذ عن حضرى قط ولا عن سكان البرارى ممن كان يسكن أطراف بلادهم المجاورة لسائر الأمم الذين حولها فإنه لم يؤخذ لا من لخم ولا من جذام لمجاورتهم أهل مصر والقبط ولا من قضاعة وغسان وإياد لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية ولا من تغلب والنمر فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

(٤) المدخل إلى دراسة النحو العربى ص٤٦. (٥) المصدر السابق ص٤٧.

ويوافقه الدكتور صبحى الصالح فلا «ينكر حضرية قريش ولا تأثرها بفارس والروم أمتى الحضارة فى تلك الحقبة من التاريخ»[1].

ويفسر الأستاذان عابدين والصالح سبب الأخذ بلغة قريش بما أراه متفقا من قريب أو بعيد مع رأى القدماء فى الهدف العام، وذلك أن الأستاذ عابدين يقول: «السبب هو أنها كانت لغة القرآن ولا شك أنها كانت أرقى لغة فى داخل الجزيرة العربية» والأستاذ الصالح يقول: «ولهجة قريش – فوق الذى أحيطت به من مظاهر التقديس – انفردت حقا بمزايا حفظت لها شخصيتها، وأتاحت لها من أسباب التكامل ما لم يتح لغيرها، فبعدها الذى وصفه ابن خلدون عن بلاد العجم من جميع جهاتها كان حاجزا طبيعيا دون كثرة اتصالها بالأجانب فلم يدخلها من لكنة الأعاجم ما داخل القبائل المتطرفة التى كانت على اتصال وثيق بمن حولها من غيرها من العرب»[2].

وعلى هذا فلا يقبل قول الأستاذ عابدين: «إن تعليل القدامى بأنهم لم يأخذوا عن القبائل المتطرفة لاتصال أصحابها بالأجانب مجرد استنتاج من المتأخرين، لتبرير [3] موقف اللغويين السابقين وليس باستنتاج موفق كما رأينا».

بل هو بذلك يناقض نفسه لأنه اعترف بأن «لهجة قريش أرقى لهجة فى الجزيرة» واعترف ابن خلدون والصالح ببعد منطقة الحجاز عن بلاد العجم الأمر الذى حفظ لها كيانها اللغوى وخصائصه المميزة.

فتعليل القدماء بأن اللغويين اقتصروا على القبائل الفصيحة التى لم تختلط بغيرها منعا لوقوع الفساد، فى مواد اللغة تعليل دقيق وليس مجرد استنتاج كما ادعى الأستاذ عابدين.

بل ورد إلينا ما يؤكد أن اللغويين العرب تشددوا فى التحرى عن الفصيح حتى لقد منعوا استعمال كلمات فصيحة لأنهم لم يطلعوا على مصادقها من كلام العرب، ومن ذلك ما يروى أن الأصمعى خطأ من قال: شتان ما بينهما وذكر أن الصحيح: شتان ما هما، قال أبو حاتم: أنشدت الأصمعى قول ربيعة الرقى:

---

(١) دراسات فى فقه اللغة ص١١١. (٢) المصدر السابق ص١١٣.

(٣) كذا بالأصل وهو خطأ شائع والصواب لتسويغ ونحوه.

لشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم

فقال الأصمعي: ليس بفصيح، وقال الأزهري في التهذيب والجوهري في الصحاح في مادة (شتت) ليس قولها ربيعة بحجة، إنما هو مولد، والحجة قول الأعشى:

شتان ما يومي على كورها ويوم حيان أخي جابر

ولكن هذا المنع للاستعمال الأول غير صحيح لورود نظائره في فصيح الكلام، ولكن غيرتهم على اللغة، وإخلاصهم لها جعلهم يتشددون في قبول الوارد، ولكنهم لو اطلعوا على المسموع لأجازوه، كقول البعيث:

وشتان ما بيني وبين رعاتها

إذا صرصر العصفور في الرطب الثعد [1]

ولذلك يقول الدكتور الصالح: ليس لهذه الحيطة في أخذ اللغة إلا تفسير واحد هو الحيلولة دون تسرب الدخيل إلى العربية، ما لم يطبع بطابع الفصحى، تبعا لأساليب تعريبها، لأن مثل هذا التسرب غير الإرادي، وغير المقصود يفسد على الباحثين فهم أصالة اللغة وشخصيتها، فقد يستنبط منه خطأ أن من خصائصها أوجها لا تلزمها، أو صيغا لم تجيء على أبنيتها، لأنها لم تنبثق عنها، وإنما انتقلت إليها عن طريق العدوى اللغوية بسبب القرب والجوار، وما أكثر صورها، وأشد أخطارها»[2].

ولذلك «امتنع رواة اللغة عن الأخذ عن القبائل التي أثر عنها الاختلاط لأن قوة اللغة تتجلى في العزلة التامة وعدم الاختلاط بغير العرب»[3].

وهذا قد أوضحه ابن جني في كتابه الخصائص إذ يقول: «علة امتناع ذلك ما عرض للغات الحاضرة وأهل المدن من الاختلاط والفساد والخطل، ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ولم يعترض شيء من الفساد للغتهم لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الوبر».

---

(١) لسان العرب ٢/١٥٣، ١٥٤ والمعاجم اللغوية د. نجا ص٨.

(٢) دراسات في فقه اللغة ص١١٥ (٣) اللهجات العربية د. نجا ص ٤٥.

وقد تنبه علماء اللغة إلى هذا الملحظ فلم يأخذوا عمن يكون مظنة الاختلاط واختلال الألسنة، ولو كان من البداة، فبعد أن شاع اللحن واتسع الاختلاط لم يأخذ العلماء منهم شيئا يتهمون فيه، بل أمسكوا عن الأخذ من البدويين حينما تسرب إليهم ما يخشى منه من اللكنة الأعجمية، وقد صاغ هذه الحقيقة أبو الفتح عثمان بن جنى فى قوله «وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدرمن اضطراب الألسنة وخبالها وانتقاص عادة الفصاحة وانتشارها لوجب رفض لغتها، وترك تلقى ما يرد عنها»[1].

وقد ضرب ابن جنى مثلا واقعيا لهذه الحقيقة من عصره الذى اتسم بتلك السمة، وفشا خطل الألسنة بين البدو فيه، وندعه يروى القصة بنفسه، وكيف أنه لم ينخدع بفصاحة مصطنعة يقول: «وقد كان طرأ علينا أحد من يدعى الفصاحة البدوية، ويتباعد عن الضعفة الحضرية، فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له، وميزناه تمييزا حسن فى النفوس موقعه، إلى أن أنشدنى يوما شعرا لنفسه يقول فى بعض قوافيه: أشئؤها، وأدأؤها[2] (بوزن أشععها وأدعها) فجمع بين الهمزتين كما ترى، واستأنف من ذلك ما لا أصل له، ولا قياس يسوغه، نعم وأبدل إلى الهمز حرفا لاحظ فى الهمز له بضد ما يجب، لأنه لو التقت همزتان عن وجوب صنعة للزم تغيير إحداهما، فكيف أن يقلب إلى الهمز قلبا ساذجا عن غير صنعة ما لاحظ له من الهمز ثم يحقق الهمزتين جميعا، إن هذا ما لا يبيحه قياس ولا ورد بمثله سماع»[3].

وابن جنى فى ذلك دقيق كل الدقة، وإن كان بعض المحدثين قد أورد نقدا له فى كل من الفقرتين السابقتين:

فالفقرة الأولى الخاصة بشيوع اللحن فى أهل الحضر، وجواز حدوثه عند البدو، واحتمال بقاء مدينة على فصاحتها قد عد الدكتور الصالح ما تشير إليه عبارتها من إمكان بقاء مدينة على فصاحتها من قبيل الفرض والخيال، يقول:

---

(١) الخصائص ٢/٥.

(٢) الأول مضارع شأى القوم: سبقهم، وصوابه: أشآها، والثانى مضارع دأوت للصيد: ختلته، وكأنه حذف الجار وصوابه: أدآها.

(٣) الخصائص ٢/٥، ٦.

«على أن فرض ابن جنى هذا كتب عليه أن يظل فرضا لا يزيد عن ذلك شيئا، فما علمنا بأهل مدينة باقين على فصاحتهم، بل رأينا أهل المدن أكثر تعرضا للحن، وفساد اللغة من البدو، ورأينا من البدو الفصحاء أنفسهم من ينتقل لسانه إلى لغة فاسدة فينكر العلماء عليه لغته، ولا يأخذون بها، ومن ذلك ما يحكى من أن أبا عمرو استضعف فصاحة أبى خيرة لما سأله فقال، كيف تقول: استأصل الله عرقاتهم ففتح أبو خيرة التاء، فقال له أبو عمرو: هيهات أبا خيرة لان جلدك»[1].

وأعتقد أنه لا وجه للدكتور الصالح فى هذا النقد، فقد ذكر الفيروزابادى فى القاموس (مادة عكد) أن باليمن قرب زبيد جبلا يسمى عكادا أهله باقون على اللغة الفصيحة، ويقول السيد مرتضى الزبيدى شارح القاموس: إنهم لا يزالون على ذلك إلى زمنه وأنهم لا يسمحون للغريب أن يقيم عندهم أكثر من ثلاث ليال خوفا على لسانهم والسيد مرتضى كانت وفاته سنة ١٢٠٥هـ ويقول ياقوت فى معجم البلدان فى ترجمة (عكدتان): «وجبلا عكاد فوق مدينة الزرائب، وأهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم لم تتغير لغتهم بحكم أنهم لم يختلطوا بغيرهم من الحاضرة فى مناكحتهم وهم أهل قرار لا يظعنون عنه، ولا يخرجون منه» وقد أشار إلى ذلك الأستاذ محمد النجار محقق الخصائص[2].

وقد اعترض على الفقرة بأسرها الأستاذ عباس حسن فى كتابه (اللغة والنحو) «فتجويز ابن جنى أن يقع الخطأ ويشيع فى أهل الوبر شيوعه فى أهل الحضر مشكلة خطيرة تتفرع منها مشكلات جمة، فى مقدمتها غموض القياس الذى نرجع إليه فى الحكم على فرد بأنه فصيح، وعلى أهل مدينة أنهم أصحاء الكلام» «ثم ماذا يقصد ابن جنى بعبارته؟ أيعنى السابقين من جاهليين وغير جاهليين فى حضرهم ووبرهم أم يعنى أهل المدر والحضر فى عصره فقط؟ إن ذلك يعنى الشك فى أرباب اللغة فلا نعرف من نأخذ عنه ومن ندع وإن كان الأخذ بكلام ابن جنى معناه أن نفحص عن حال كل متكلم، ولو كان فى عصر ابن

(١) دراسات فى فقه اللغة ص١١٥ وحكاية أبى خيرة بالخصائص ٢/١٣.
(٢) التعليق ٢/٥.

جنى بل بعده لنتبين منه سلامة القول أو عدم سلامته ثم نحكم عليه بمقتضى ما ينكشف عنه القول، فهذا أيضا يسلمنا إلى المشكلات السابقة فلا ندرى من نرجع إليه ومن هو صاحب القول السليم من الأولين العرب، أهم أهل الجاهلية وحدهم أم هم وفريق آخر بعدهم؟ ومن الحكم الذى يصلح لهذا؟ أسئلة عسيرة الجواب اضطرب فى شأنها كبار الباحثين»[1].

وهذه الثورة العنيفة لا داعى إليها، لأن ابن جنى براء من تلك التهم الموجهة إليه فعبارته لا تعنى أكثر من بيان من تؤخذ عنهم اللغة، وهم العرب الخلص الذين لم يختلطوا بغيرهم، ولم يتسرب الفساد إلى ألسنتهم، وعلى هذا فلا يؤخذ من الحضر أو البدو الذين لا يتصفون بذلك، وحديث ابن جنى خاص بعصره لا يتعداه إلى غيره، فلا يدخل فيه الجاهليون أو الإسلاميون أو الأمويون، وهذا واضح من قوله «وعلى ذلك العمل فى وقتنا هذا لأنا لا نكاد نرى بدويا فصيحا وإن نحن آنسنا منه فصاحة فى كلامه لم نكد نعدم ما يفسد ذلك ويقدح فيه، وينال ويغض منه»[2].

وبهذا يبطل ما ادعاه الأستاذ عباس من وجود مشكلات خطيرة، ومن تردده فى فهم المقصود من عبارة ابن جنى أهم الجاهليون أم غيرهم؟ فلا مشكلات ولا تردد، وعبارة ابن جنى تنبه – فقط – الباحث اللغوى أن يتحرى من يأخذ عنه، ويمعن النظر فى فصاحته، وبيانه، وبخاصة بعد فساد السلائق الذى حدثت بوادره فى عهده، ولذا ضرب لنا المثل بالعربى الذى وضحت له رداءة لغته، وهو لا يعنى بأى حال من الأحوال تطبيق ذلك على من سبقوه من العرب، فلا معنى لأسئلة الأستاذ عباس: أيخطىء الجاهليون أم لا يخطئون؟... إلخ وليست المسألة تستدعى إجابة صعبة تتطلب كبار الباحثين، وتستوقف تفكيرهم على حد دعواه السابقة.

ولعل الأستاذ عباسا أسرف – فى نقده – حين ادعى أن «ابن جنى أخطأ فى كل الذى ذهب إليه من قصة ذلك الأعرابى فى الفقرة الثانية» وقد فرض الأستاذ عباس أن ذلك الأعرابى إما أن يكون فصيحا مستقيم اللسان كنظرائه من العرب

---

(١) اللغة والنحو ص١٢٤، ١٢٦ بتصرف. (٢) الخصائص ٢/٥.

فيجب أن يؤخذ عنه، ويكون قوله (أشئؤها وأدأؤها) صحيحا مقبولا وإما أن يكون متهما فى فصاحته وأصالته العربية فلا يؤخذ بكلامه كغيره ممن لا يحتج بعربيتهم» فكيف يعجب ابن جنى بعربى ويصفه بفصاحة اللسان، ثم يرتد متهما إياه جارحا له؟ [1] إن هذا فى نظر الأستاذ تناقض وخطأ، والباحث المنصف لا يرى فى ذلك تناقضا ولا خطأ، فابن جنى يدعونا إلى تحرى الدقة فيمن نأخذ عنه بحيث لا تغرنا فصاحة مصنوعة يشوبها فساد الجبلة فيجب ألا نأخذ الأمور على ظاهرها بل نتعمق ونتفحص ولا نتعجل فى الأخذ، فإن ذلك ربما أدى إلى خطأ لغوى جسيم، وقد حرص الرواة والعلماء على ذلك فلم يكونوا – كما قال الدكتور الصالح – «ليخدعوا بمثل هذا البدوى أو يظلوا عاكفين على كلامه يتلقونه بالقبول، فما أسرع ما كان يفجؤهم منه ما ينال من فصاحته، ويغض من بيانه، ويقدح فيه، فإذا هم يرفضون لغته، ويمتنعون من التلقى عنه» [2].

فابن جنى لم يناقض نفسه، بل تبين له فساد لسان هذا العربي بعد تحر وتدقيق لأنه لا يمكن للوهلة الأولى معرفة حقيقة الحال، فلم يكن هذا الشخص فصيحا ثم اتهمه ابن جنى، بل إنه غير فصيح من أول الأمر إلا أنه خفى أولا ثم استبان أخيرا، فلا خطأ ولا تناقض وتلك هى الحنكة والدراية اللغوية التى يجب أن تتوافر لعالم اللغة ولله در ابن جنى عالما لغويا فذا.

مقاييس الفصاحة:

وبناء على هذا المبدأ – وهو الأخذ عن القبائل الفصيحة وترك غيرها – اختلف العلماء الأقدمون فى المقاييس التى يعرف بها الفصيح من غيره «فمن قائل إن نزول العربى الأمصار محقق الخطر على اللغة ولو قلت المدة، وقل الاتصال فيها بالأعاجم، ومن مخالف لذلك مشترط طول الإقامة وكثرة الاتصال من غير بيان للطول والكثرة ومن ثالث يقول: إن ذلك مشروط بإهمال الفصحى فى ذلك المصر، وبالتهاون فيها تهاونا تظهر أماراته بانتشار اللحن، وذيوع الخطأ هناك، ومن رابع يرى أن الخطر المتوقع لم يتحقق إلا بعد قرن للهجرة، ومن مخالف

---

(١) اللغة والنحو ص١٢٥.

(٢) دراسات فى فقه اللغة ص١١٦.

يحدد لذلك قرنين أو ثلاثة »[١] وأبو عمرو بن العلاء لا يعد الشعر إلا للمتقدمين. . وكان الأصمعى لا يحتج بشىء من شعر الكميت والطرماح ويعدهما مولدين »[٢] وهكذا كان الأقدمون يتمسكون بالقديم، وتبعهم النحاة، فكانوا ياخذون عن الجاهليين والمخضرمين باتفاق، واختلفوا فى الأخذ عن المتقدمين من شعراء صدر الإسلام كجرير والفرزدق، أما الطبقة الرابعة وهم المولدون (الذين يلون عصر جرير والفرزدق إلى عصرنا هذا) فالصحيح – عندهم – أنه لا يستشهد بكلامها إطلاقا[٣] وابن قتيبة يرى أن الشعر والعلم والبلاغة لا تقتصر على قوم دون آخرين، ولا على زمن دون غيره وكل قديم حديث فى عصره[٤] وعلى هذا فيؤخذ عن الجاهليين والإسلاميين والمولدين إلى عصرنا هذا.

ويدعى الأستاذ عباس حسن أن «لابن جنى رأيا يقارب هذا فى ظاهره ويخالفه فى حقيقته، فهو يرى أن الأخذ وعدمه ليس رهنا بالبدو أو الحضر وإنما هو رهن بصحة اللسان وسلامته، فحيثما وجد فقد صح الأخذ، وإلا فلا يصح، يتساوى فى هذا أعراب البادية، وسكان المدن، وظاهر هذا الرأى هو الاتفاق مع ابن قتيبة، أما حقيقة فالخلف بينهما واسع، فقد جوز ابن جنى أن يقع الخطأ ويشيع فى أهل الوبر شيوعه فى أهل الحضر»[٥].

ويبدو لنا أن رأى ابن جنى لا يتفق مع رأى ابن قتيبة فى الاحتجاج بأقوال المولدين على اللغة والقواعد، والفرق الذى ذكره الأستاذ عباس ليس فرقا فى الحقيقة، بل هو محل اتفاق من الطرفين، إذ كلاهما يشترط الفصاحة، وهى لا تتفق مع وقوع الخطأ سواء كان المتحدث بدويا أو حضريا، لكن الفرق الجوهرى الذى لا يجعل رأى ابن جنى متفقا مع ابن قتيبة هو أن ابن قتيبة يشترط للأخذ عن الشخص أن يكون فصيحا فقط سواء كان فى عصور قوة اللغة أم لا وسواء كان عربيا أم غيره، وبهذا التحديد يجوز الاحتجاج بكلام المولدين الفصحاء، «وطبقتهم تشمل ما بعد عصر جرير والفرزدق إلى عصرنا هذا ومنهم بشار وأبو نواس والمتنبى وغيرهم»[٦].

---

(١) اللغة والنحو ص١١٨، ١١٩.
(٢) المزهر ط الأولى ٢/ ٣٠٤، ٣٥٤.
(٣) المدخل إلى دراسة النحو العربى ص٩٢، ٩٣.
(٤) الشعر والشعراء ط دار المعارف ١٩٦٦ ص٦٢.
(٥) اللغة والنحو ص١٢٢ – ١٢٤.
(٦) المدخل ص ٩٢.

وأما ابن جنى فمع اشتراطه الفصاحة بالنسبة للمأخرذ عنه يبدو أنه يشترط كذلك السليقة العربية، والسليقة يفسرها علماؤنا الأقدمون على أنها فطرة ترتبط بالجنس، وليست مجرد اكتساب للغة كما فسرها بعض الباحثين المحدثين، وابن جنى يسلك فى عداد هؤلاء القائلين بأن السليقة طبع، ويفهم ذلك من مواضع كثيرة من خصائصه « فمن العرب من يستعصم فيقيم على لغته ألبتة . . كما فى قصة أبى زيادالكلابى مع أبى عبد الله ابن الأعرابى فقد سأل أبو زياد أبا عبد الله عن قول النابغة الذبيانى :

على ظهر مبناة

فقال أبو عبد الله عن المبناة هى (النطع) – بفتح النون – فقال أبو زياد لا أعرفه، فقال : (النطع) – بكسر النون – فقال أبو زياد : نعم، أفلا ترى كيف أنكر غير لغته على قرب بينهما »[1] وقصة أخرى من التشدد فى تمسك الأعرابى بلغته، روى عن أبى حاتم قال : قرأ على أعرابى بالحرم « طيبى لهم وحسن مآب » فقلت طوبى، فقال : طيبى، قلت : طوبى، قال : طيبى : فلما طال على قلت : طوطو، فقال : طى طى، أفلا ترى إلى استعصام هذا الأعرابى بلغته وتركه متابعة أبى حاتم[2] .

ومن قصص ابن جنى مع محمد بن العساف الشجرى – وهو أعرابى من عقيل يعجب به ابن جنى كثيرا ويتحاور معه – ما يشير إلى ذلك مثل قوله : « وسألته – يعنى الشجرى – يوما فقلت له : كيف تجمع دكانا؟ فقال : دكاكين، قلت فسرحانا؟ قال : سراحين، قلت : فقرطانا؟ قال : قراطين، قلت فعثمان؟ قال عثمانون، فقلت له : هلا قلت أيضا عثامين؟ قال : أيش عثامين . . ! أرأيت إنسانا يتكلم بما ليس من لغته والله لا أقولها أبدا »[3] .

ولكن الدكتور تمام حسان ينسب إلى ابن جنى القول بأن السليقة اكتساب بناء على فهمه عبارة « وكذلك أيضا لو فشا فى أهل الوبر ما شاع فى لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها، وانتقاض عادة الفصحة لوجب رفض لغتها، وترك تلقى ما يرد عنها، وعلى ذلك العمل فى يومنا هذا لأنا لانكاد نرى بدويا

---

(١) الخصائص ١ / ٣٨٣ .
(٢) المصدر السابق ١ / ٣٨٤ .
(٣) المصدر السابق ١ / ٢٤٢ .

فصيحا[1] ويعقب على ذلك الدكتور تمام بقوله «فالفصاحة عند ابن جنى عادة لا أكثر ولا أقل، أى أن السليقة اكتساب، وتعود، ولو أنها كانت فى نظره طبعا أو سجية، أو نحيزة، - كما كانوا يقولون - لما جعل ابن جنى فى أبواب خصائصه (باب فى العربى الفصيح ينتقل لسانه)[2].

والواقع أن ابن جنى من القائلين بالطبع لا بالاكتساب بدليل ما سبق من أقواله، ولأنه وإن كان يجوز انتقال لسان العربى الفصيح فإنه أشار إلى صعوبة هذا الانتقال، وأنه لا يتحقق إلا بعد تكرار وتكرار للغة الأخرى، وتواردها عليه كثيرا «فإذا طال تكرر لغة غيره عليه لصقت به ووجدت فى كلامه [3] وقد قال: «إن الأعرابى الفصيح إذا عدل به عن لغته الفصيحة إلى أخرى سقيمة عافها ولم يبهأ بها»[4] وتحدث عن الطباع العربية، وإرهاف حس العرب وذوقهم الأصيل فى فهم المعنى، وعمل ما يقتضيه، وروى قول عمارة الكلبى وقد عيب عليه بيت من شعره فامتعض لذلك:

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياس نحوهم هذا الذى ابتدعوا
إن قلت قافية بكرا يكون بها ... بيت خلاف الذى قاسوه أو ذرعوا
قالوا: لحنت وهذا ليس منتصبا ... وذاك خفض وهذا ليس يرتفع
وحرضوا بين عبد الله من حمق ... وبين زيد فطال الضرب والوجع
كم بين قوم قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قوم على إعرابهم طبعوا
ما كل قولى مشروحا لكم فخذوا ... ماتعرفون وما لم تعرفوا فدعوا
لأن أرضى أرض لا تشب بها ... نار المجوس ولا تبنى بها البيع[5]

---

(١) المصدر السابق ٢ / ٥.

(٢) المصدر السابق ٢ / ١٢ واللغة بين المعيارية والوصفية ص٧٦.

(٣) الخصائص ١ / ٣٨٣ وهذا تبعا لعوامل الاجتماع التى تتأتى فى لقاء اللغات واللهجات، وتؤدى إلى انقسام اللغة إلى لهجات، وابن جنى كان مشغوفا بمشافهة الأعراب الخلص، ولم يأخذ عن غيرهم اللهم إلا فى المعانى كما سيأتى.

(٤) الخصائص ٢ / ٢٦ ويقال: بهأ بالشىء: أنس به وأحب قربه.

(٥) المصدر السابق ١ / ٢٣٧ - ٢٥١.

وبهذا ثبت أن ابن جنى – مع غيره من القدماء – يشترطون للأخذ عن الشخص أن يكون عربيا بفطرته، وهذا يعنى أنه عربى الجنس وفى حقبة معينة اتصف أهلها بالفصاحة وقوة اللغة، فلا حجة فى المولدين كما ذكرنا آنفا.

هذا فى مجال رواية اللغة، ووضع قواعدها.

أما فى المعانى الأدبية فإن ابن جنى – كابن قتيبة – لا يمنع من الاستشهاد عليها بكلام المولدين، ويمكن فهم تفريقه بين الحالين مما ذكره من استشهاد على بعض المعانى بشعر للمتنبى فقد فرق بين ألفاظ اللغة ومعانيها، فلا يقبل قول مولد فى الألفاظ لأن هذا الموضع معتبر فيها، أما فى المعانى فيقبل لأن المولدين يتناهبونها كالأقدمين[1] ثم إنه يعترف بأن شعر المولدين مظنة الخطأ فى اللغة، فبعد أن وثق أبا نواس بأنه كانت له معرفة بعلم العرب وخدم العلماء وأخذ عنهم اللغة، وقرأ عليهم دواوين العرب روى قول بعض أهل العلم فيه: لولا ما كان يخلط شعره من الخلاعة لاحتج بشعره فى كتاب الله تبارك وتعالى، وفى حديث الرسول ﷺ[2] فهذا يدل على اقتناعه الكامل بأنه لا يحتج بقول مولد فى اللغة وقواعدها، أما فى المعانى فلا بأس بالاعتراف بها والنظر إليها[3].

وقد نقد المحدثون هذا الاتجاه وعدوه معوقا لتقدم اللغة، ومرونتها يقول الدكتور إبراهيم أنيس: إن «قدماء العرب قصروا السليقة على العرب الخلص وادعوا أن أى أجنبى تعلم العربية لا يمكنه مهما ثابر وجد أن يتقن اللغة كما يتقنها أهلها... ولذا لم يروا فى شعر أبى تمام، والمتنبى ما يؤهلهما لتلك السليقة اللغوية التى قصروها على قوم معينين، وقصروها على زمن معين، وبيئة معينة، فنشأ فى مخيلاتهم ما يمكن أن يعبر عنه بدكتاتورية الزمان والمكان»[4].

وأكثر المحدثين لا يربطون بين اللغة والجنس «فاللغة ملك من يتعلمها لا أثر للوراثة أو الجنس فيها، فالطفل الذى يولد من أبوين مصريين وينشأ بعيدا

---

(١) الخصائص ٦/٢٤ والمحتسب ١/٢٣١. (٢) شرح أرجوزة أبى نواس ص٨، ٩.

(٣) أخذ ابن سنان الخفاجى برأى ابن جنى، فالمولدون يجيدون المعانى ولكن لا يستشهد بشعرهم لسكناهم المدن ولذلك لم يؤخذ بشعر الكميت والطرماح لأنهما كانا حضريين. انظر: سر الفصاحة ص ٣٢٧ – ٣٣٥.

(٤) من أسرار اللغة ص٢٠، ٢١ وانظر: التطور اللغوى التاريخى ص٣٩.

عنهما فى بيئة إنجليزية أو فرنسية يتكلم هاتين اللغتين بالسليقة، والطفل الفارسى الذى ينشأ فى جزيرة العرب بعيدا عن أهله يتكلم العربية بالسليقة »(١) ولهذا جوزوا الأخذ بأقوال المولدين بحيث « تستنبط القواعد ممن يحافظون على اللغة من علماء وشعراء ما دام الشخص يلتزم بالمستوى الصوابى للمرحلة »(٢) « وإن شاعرا كالمتنبى أو المعرى أو حتى الشعراء المحدثين المعاصرين لجدير بأن تستفاد منهم شواهد اللغة كما استفيد من آداب القدماء سواء بسواء، فلهؤلاء أفكار وتعبيرات تفيدنا فى تطور اللغة، وتكمل بعض مواطن النقص فى قواعدها »(٣).

وهذا يتفق مع ما ذهب إليه ابن قتيبة، وما سار عليه الزمخشرى، فقد استشهد بشعر أبى تمام فى أوائل سورة البقرة، وقال: « وأبو تمام وإن كان محدثا لا يستشهد بشعره فى اللغة فهو من علماء العربية، فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه، ألا ترى إلى قول العلماء: الدليل عليه بيت الحماسة، فيقنعون بذلك لوثوقهم بروايته وإتقانه »(٤).

ولكن يبدو أن توسيع نطاق من يؤخذ عنهم على هذه الصورة يخل بالطابع الأصيل للغة، وربما يؤدى إلى ذهاب خصائصها، وتلاشيها فلا يعقل أن شاعرا أو كاتبا اختلط بالأعاجم وزاد اختلاطه فى عصور التاريخ المتأخرة – لا يعقل أنه لم يتسرب إلى لسانه آثار أعجمية، مهما يقل عن فصاحة هذا الشاعر أو المتكلم العربى فلا شك أن طباع من اختلط بهم، وطرائقهم فى التعبير وألفاظهم ستدخل إلى لغته وتعبيره، ويقول الإمام محمد الخضر: وكيف يحتج بأقوال المولدين وقد وقعوا فى أغلاط كثيرة لا يستطيع أحد تخريجها على وجه مقبول، فهذا أبو تمام يقول:

لعذلته فى دمنتين تقادما ممحوتين لزينب وسعاد

والصواب: تقادمتا.

وهذا المتنبى يقول:

فإن يك بعض الناس سيفا لدولة ففى الناس بوقات لها وطبول

---

(١) اللغة ص ٢٩٨.
(٢) اللغة بين المعيارية والوصفية ص٧٨.
(٣) المدخل ص٩٤.
(٤) الكشاف للزمخشرى ج١ ص٢٢١.

والصواب : فى جمع بوق : أبواق[1] .

وهم مع ذلك قد يستعملون تراكيب ليست من خصائص العربية فى شيء . يقول شوقى يخاطب سلاح الطيران :

ياسلاح العصر بشرنا به كل عصر بكمى وسلاح

إن عزا لم يظلل فى غد بجناحيك ذليل مستباح

فالفعل (يظلل) منفى بلم وزمنه مع هذا مستقبل بدليل (فى غد)[2] .

ومع تسليمنا بأن الطفل يكتسب اللغة التى يعيش فى أحضانها فإننا نرى أن ذلك يأتى حينما ينشأ الطفل وحده (دون أبويه أو أحد آخر من أهله) فى بيئة أجنبية عنه فإنه – حينئذ – يكتسب لغة المجتمع الذى يعيش فيه حتى تصير سليقة له، ونشأة الطفل بعيدا عن أهله على هذه الصورة قليل وبخاصة فى الأزمان الماضية، ومن هنا يمكن أن نفهم إحجام علماء اللغة عن الأخذ عن غير العرب حتى من نشأ منهم فى البيئة العربية، لأنه – ولا ريب – متأثر بلغة أهله القدامى، ولذا كانت طريقة علماء اللغة العرب سديدة تتحرى الدقة حتى تبقى للعربية سماتها، ومعالمها، وكان لذلك قرار مجمع اللغة العربية حكيما حينما حدد « أن العرب الذين يوثق بعربيتهم ويستشهد بكلامهم هم عرب الأمصار إلى نهاية القرن الثانى، وأهل البدو من جزيرة العرب إلى آخر القرن الرابع.»[3] وذلك لأن اللغة ظلت سليمة إلى هذا التاريخ، وما ظهر خلال تلك الفترة ضئيل يمكن الإغضاء عنه، وهذا خير لتقدم اللغة »[4] .

الاستشهاد بالقرآن والحديث :

والذى تجدر الإشارة إليه عدم اهتمام اللغويين والنحاة بالاستشهاد على الظواهر اللغوية وقوانينها بالقرآن، والسنة النبوية الشريفة اهتماما واسعا فالباحث يرى أنهم يأتون بالشواهد من مأثور الكلام شعرا ونثرا وربما اعتمدوا فى تقعيد قواعدهم على شاهد واحد – كما هو معروف عند الكوفيين – وربما لم يعرف

---

(١) القياس فى اللغة العربية ص٣٦ . (٢) طرق تنمية الألفاظ فى اللغة ص٢٧ .

(٣) مجلة المجمع ١ / ٢٠٢، ٢٩٤، ٣٠٣ . (٤) اللغة والنحو ص٢٤ .

قائله، وقد يكون مصنوعا، فقد أجاز الكوفيون دخول اللام على خبر (لكن) واستشهدوا بهذا الشطر الذى لا تعرف له تتمة:

*** ولكننى من حبها لعميد[1] ***

وورد صريحا أن سيبويه سأل اللاحقى: هل تعدى العرب (فعلا) – بفتح الفاء وكسر العين –؟ قال: فوضعت له هذا البيت:

حذر أمورا لا تضير وآمن ما ليس منجيه من الأقدار[2]

ومع هذا لم يهتموا بالاستشهاد بالقرآن الكريم، وفى القليل النادر يعرجون على نصوص منه، فيستشهدون بآية بدلا من هذا البيت المجهول، أو هذه العبارات السقيمة، أوتلك التراكيب المصنوعة، ولو أنهم استشهدوا بالقرآن لرجعوا إلى النص الصحيح الأقدم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[3].

كذلك جرى جمهور النحاة على عدم الاحتجاج بالحديث الشريف فى تقرير الأحكام العربية، لروايته بالمعنى، وكان الأولى بهم أن يعدوه حجة فى اللغة، وبخاصة بعد أن دون «وتدوين الأحاديث وقع فى الصدر الأول حين كان أولئك الرواة الذين يتصرفون فى ألفاظ الحديث – على تقدير تصرفهم – ممن يوثق بهم، ويحتج فى أحكام الألفاظ بعباراتهم»[4].

وقد أدى عدم اهتمام اللغويين، والنحاة بهذين المصدرين فى الاحتجاج إلى وجود مشكلات لغوية كثيرة، وتأويلات معقدة ربما كان من السهل التخلص منها بالرجوع إلى هذين الأثرين اللذين يمثلان اللغة فى صورتها المثالية[5].

---

(١) شرح شواهد الأشمونى للعينى ١/ ٢٨٠.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٩٨ والكتاب بتحقيق الأستاذ هارون ١/ ١١٣.

(٣) المدخل إلى دراسة النحو العربى ٩٦، ٩٧ لم تتعد شواهد سيبويه – مثلا – فى كتابه من القرآن الكريم خمسمائة آية إلا بقليل على حين أن شواهده من الشعر تنيف على مائة وألف أما الشواهد من الأمثلة المصنوعة مثل ضرب زيد عمرا، واضرب بكرا فلا يحصى عددها. انظر: فهرس كتاب سيبويه للشيخ محمد عضيمة.

(٤) القياس فى اللغة العربية ٣٢، ٣٣ بتصرف.

(٥) انظر: بحثنا فى مجلة كلية اللغة العربية بالرياض العدد الثانى عشر بعنوان (القراءات وصلتها باللهجات العربية).

٣- أطوار اللغة العربية:

الملاحظ أن عربية الشمال تغلبت - فى النهاية - على عربية الجنوب بعد تغلب أهلها، وصارت لغة الجزيرة كلها جنوبيها وشماليها واحدة قبل الإسلام بقليل.

والملاحظ كذلك وجود فروق لغوية بين عربية الجنوب القديمة كالحميرية وعربية الشمال العدنانية وظهر ذلك من مراجعة بعض النقوش، وبعض كتب اللغة والأدب.

وبناء على هذا أنكر بعض العلماء وجود الصلة بين اللغتين كأبى عمرو بن العلاء الذى قال: ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا وكابن جنى الذى يقول «لسنا نشك فى بعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار».

ويقول ابن خلدون «وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصريف كلماته، تشهد لذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافا لمن يحمله القصور على أنهما لغة واحدة ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها، كما يزعم بعضهم فى اشتقاق القيل فى اللسان الحميرى أنه من القول وكثير من أشباه هذا، وليس ذلك بصحيح، ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها[١].

وليس معنى هذا الاختلاف فى بعض الأصوات والكلمات والقواعد أنهما متغايرتان تماما، بل إنهما من أصل واحد إلا أن القبائل التى هاجرت إلى الشمال سلكت مسلكا مناسبا للبيئة التى عاشت فيها على حين اختلفت أحوال الحياة فى جنوبى الجزيرة وهذا الخلاف الطبيعى والاجتماعى لابد أن يترك أثره على

---

(١) مقدمة ابن خلدون - ط مصطفى محمد ص٥٥٧ ومن ذلك - مثلا - أداة التعريف والتنكير فالتنوين علامة التنكير فى عربية الشمال على حين أن علامة التنكير فى الحميرية هى الميم فيقال ملكم - بدلا من ملك، وأداة التعريف فى عربية الشمال هى (ال) على حين أنها فى الحمرية أم - وفى الحديث (ليس من امبر امصيام فى امسفر) وكلمة ثب معناها اقفز عند الشماليين، وعند حمير اجلس وقصة عبد الله بن دارم مشهورة، ومن النقوش (ب وهق جنا وصوايت ومحفدت وهجر همو) معناه بالشمالية: وأعلوا السور مرة أخرى.

اللغة، فتتغير وتتطور فهما لغة واحدة إلا أن عوامل الحياة والتطور – هى التى جعلتهما مختلفتين.

وبعد ما لاحظنا من اتحاد لغتى الشمال والجنوب قبل الإسلام يمكننا أن نقول: إن عرب الشمال كانت لهم هم الآخرين لهجات متعددة كالتميمية والحجازية إلا أن لقاء القرشيين بإخوانهم العرب فى الأسواق والحج والمعاملات الأخرى، إلى جانب كونهم سدنة بيت الله وحكام العرب المقدمين كل ذلك جعل للهجتهم تفوقا ليس لأخواتها، وكان القرشيون يهذبون لهجتهم فيتركون مستبشع الألفاظ والتراكيب، ويضمون لها أعذبها مما يلائم طبيعة الحياة، ومتجدداتها فتجمعت لها عناصر السيادة[1]، ويصر بعض الباحثين على أن تلك اللهجة التى تغلبت فأصبحت لغة العرب جميعا هى لغة عامة مشتقة من كل اللهجات، وليست القرشية على الخصوص، والخطب سهل.

فمرادنا اجتماع اللسان العربى على طريقة واحدة فصحى أيدت بنزول القرآن الكريم الذى قوى من شأنها، ودعم من سلطانها.

ولا ريب أن الإسلام كان له أثر فى تلك اللغة الموحدة، فقد أتى بحضارة ومثل جديدة لم تكن عند العرب من قبل على تلك الصورة التى أتى بها، فهذب من نفوسهم وكذلك من لغاتهم.

ومن آثار الإسلام:

١– موت بعض الألفاظ والتراكيب التى لم يعد لها موضع فى حياة العرب المسلمين كالمرباع[2] والنشيطة[3] والفضول[4] وأنعم صباحا، وأنعم مساء، وقولهم للملك: أبيت اللعن.

٢– استعمال ألفاظ فى معان جديدة على سبيل التوسع أو التضييق كألفاظ المؤمن والمنافق والصلاة والزكاة والحج.

٣– وجود بعض الألفاظ والتراكيب اللغوية: كالمخضرم ومات حتف أنفه وقول الرسول ﷺ: «لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين»[5].

---

(١) المزهر ١ / ٢١٠، ٢٢١.
(٢) ربع الغنيمة الذى كان يأخذه الرئيس فى الجاهلية.
(٣) ما أصاب الرئيس قبل أن يصير إلى بيضة القوم.
(٤) بقايا من الغنيمة لا تمكن قسمتها.
(٥) المزهر ١ / ٢٩٤ – ٣٠٣.

فلما جاء عهد الخلفاء الراشدين تمتعت العربية بالتفوق على لغات كثيرة بدخول الإسلام إلى أقطار جديدة كالعراق والشام ومصر، فصرعت لغاتها الفارسية والرومية والقبطية، وحلت محلها، ولما اتسعت الدولة الإسلامية احتاجت الحضارة إلى ألفاظ وتراكيب جديدة فاستحدثت ألفاظ للإمارة كأمير المؤمنين والخليفة والوالى، ووجدت الدواوين ووضعت لها الأسماء، كما استحدثت أسماء لبعض الآلات الحربية.

فلما جاء العصر العباسى، وزاد اتصال العرب بحضارات الأمم الأخرى كالفرس والهنود، ودخلت علوم اليونان من فلسفة وطب ورياضيات وفلك وغيرها نقلت إلى العربية ألفاظ ومصطلحات علمية فى تلك المجالات المختلفة بل نقلت إلى العربية طرائق من التعبير لم تعرفها من قبل كالتعبير اليونانى باستعمال (لا) النافية ممزوجة ب (ال) فى مثل (اللاوعى) (اللافهم)[1].

ولا ننسى أن نشير هنا إلى أن اللغةالعربية – وإن كانت وجدت مكانا فسيحا ترتع فيه – فإنها أصيبت بفساد لحقها فى هذا السباق، فقد دب اللحن على الألسنة ووجدت بوادر منه فى عصر الرسول ﷺ ثم زاد اللحن بعد أن اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، واختلط العرب بغيرهم ودخل الناس فى دين الله أفواجا من كل جنس ولون، وربما ظل اللحن غير فاش طيلة عهد الخلفاء الراشدين والدولة الأموية لغيرة بعض الخلفاء كعمر، وتعصب الأمويين للعرب والعربية، فلما كان العصر العباسى فتح العباسيون للأعاجم الأبواب على مصاريعها فدخلوا فى كل شئون الدولة وتولوا المناصب القيادية فيها، وقد تسبب هذا الاختلاط الواسع فى فساد ألسنة العرب، ونشأة أجيال يكثر اللحن فى منطقها إلى الحد الذى دعا العلماء الغيورين على اللغة للذهاب إلى البادية وجمع الألفاظ العربية واستخلاص القواعد اللغوية تبعا للسليقة من هذا التراث الذى جمعوه، وفى مقدمة هؤلاء العلماء الخليل بن أحمد ويونس بن حبيب الضبى، والأصمعى، وأبو زيد الأنصارى، وغيرهم.

ولا ريب أن التأليف بدأ يأخذ مكانه فى اللغة، ووجدت مدارس متعددة

---

(١) شفاء الغليل ١٧٥، ١٧٦، والمزهر ١/ ٢٦٨ وما بعدها.

لدراسة القواعد والظواهر اللغوية، وأهمها المدرسة البصرية، والمدرسة الكوفية اللتان كان لهما ولتنافسهماالفضل الأكبر فى نهضة الدراسة اللغوية العربية.

ولذا فقد ظهرت المصطلحات اللغوية الكثيرة كالفاعل، والمفعول والمبتدأ والخبر والإعلال والإبدال، وغير ذلك واصطلاحات علم العروض وبعض مصطلحات فقه اللغة[١].

وهذا كله من أجل حسر الموجات الزاحفة، لتحطيم السليقة العربية.

ونحن نلاحظ أن السليقة ظلت قوية - وان عرا المدن كثير من اللحن حتى على ألسنة الخواص - كالفراء الذى قيل إنه لحن فى حضرة الرشيد، فقال له الرشيد: أتلحن يا فراء؟ فقال الفراء: يا أمير المؤمنين إن طباع الحضر اللحن، فإذا تمسكت لم ألحن، وإذا رجعت إلى الطباع لحنت[٢].

أما البادية فقد كانت حتى آخر القرن الرابع الهجرى لا تزال فصيحة لم يشب لسانها لحن، ولذا اعتمدت المجامع اللغوية عصر الاحتجاج بأنه فى البادية حتى نهاية القرن الرابع، وفى الحضر حتى منتصف القرن الثانى الهجرى تبعا لمسار اللحن فى كل منهما.

وليس معنى هذا أن اللسان العربى فى الدولة العباسية تقوض أو انهار بل إنه كان لا يزال قويا متماسكا لأن الخلفاء عرب أصلاء ولا يمكن أن يستشرى اللحن فجأة، لأن سنة التطور تقضى بالتدرج ببطء، مع ملاحظة أن فتح الأبواب للأعاجم جعلهم يتجهون إلى العربية ليجيدوها وليصلوا إلى المناصب الرفيعة فى الدولة فنهضت الدراسات اللغوية على النحو الذى نجده فى تلك الفترة الزاهرة بالعلوم والمعارف.

ولئن تحقق ذلك فى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٣٢٤هـ) مع غزارة العلوم والمعارف التى اكتسبها العرب والتى ألفوا فيها إسلامية وعربية، فإن عصر

---

(١) المزهر ١/٢٩٥، ٢٩٨، ٢٩٩.

(٢) هذه الرواية يذكرها الحنبلى فى شذراته والزبيدى فى طبقاته وابن خلكان فى وفياته ويذكر بعض الباحثين المحدثين وهو الأستاذ إسماعيل العبايجى أن هذه الرواية موضوعة على الرجل أقحمها حساده ومناوئوه - مجلة العربى العدد ١٨٢ المحرم ١٣٩٤هـ فبراير ١٩٧٤م ص١٦٧، ١٦٨.

الضعف والتفكك السياسى بعد ذلك (٢٨٠ – ٤٤٧ هـ) كان أكثر نشاطا فى اللغة للتنافس العلمى بين الدويلات التى ظهرت فى هذا العصر، ولذا برزت فيه المؤلفات الطبية والفلسفية، والأدبية. واللغوية، وغيرها، وعاد ذلك على اللغة بالقوة التى جعلتها تجابه الفارسية التى بدأت تنافس العربية ولا سيما حين استخدمها السامانيون لغة رسمية لهم.

لكن ذلك العمل اللغوى العظيم لم تظهر آثاره فى الحفاظ على اللسان العربى إلا عند الخاصة من الطبقات الراقية، والأدباء، وفى لغة العلم والثقافات والرسميات.

أما العامة من الناس فقد انزلقوا إلى اللحن، وفقد كلامهم كثيرا من خصائص الفصحى دون أن يستطيع أحد صد هذا التيار الجارف من اللحن لأن عوامله كانت أقوى.

ومع احتفاظ اللغة بقواعد الإعراب والتصريف، وكثير من الألفاظ، والتراكيب نلاحظ أنها قد سلكت مسلك التجديد فى بعض الأساليب وظهر – أولا – عند الأعاجم، ثم أغرم به مثقفو المسلمين، وبخاصة الشعراء منهم، فقد كانت لابن المقفع جولات فى الترجمة بأساليب جديدة[١] وكانت لبشار بن برد أشعار تنهج منهجا لم يعرف فى العربية من قبل[٢] ثم حاذاه شعراء مسلمون كأبى العتاهية وابن الأحنف وسلم الخاسر، وقد عد يوهان فك ذلك عصرا ذهبيا للأدب العربى [٣].

فلما استولى السلاجقة على الحكم (٤٤٧ – ٦٥٦ هـ) أصبحت الفارسية لغة الأدب والشعر والسياسة والأمور الرسمية فى الدولة، ولكن العربية وجدت بعض الاهتمام لأن أولئك الحاكمين كانوا يشعرون بارتباطهم بالإسلام واحتياجهم إلى تعاليمه، ولا سيما فى القضاء والإدارة، فهم فى حاجة إلى من يقوم لهم بذلك، وكانوا يعتنقون المذهب السنى فأنشأوا المدارس التى اهتمت

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ. د. شوقى ضيف ص٢٠. (٢) المصدر السابق ٢٣، ٢٤.

(٣) انظر: العربية، ففيه تفصيلات كثيرة عن ذلك وبيان العصر الذهبى ص١١١ ط دار الكتاب العربى ١٩٥١م.

بالدراسة اللغوية، والأدبية، والدينية لتفى بمطالبهم، وقد ألف أحد مدرسيها وهو أبو منصور الجواليقى كتابه (المعرب) الذى يبين لنا ما دخل العربية فى تلك الحقبة من اللغات الأخرى، كما ألف الحريرى كتابه (درة الغواص فى أوهام الخواص) فيما جرى من اللحن على لسان الخواص مع ما كان لديهم من اتجاه إلى الفصحى، واهتمام بها.

فلما جاء العصر المملوكى (٦٥٦ – ٩٢٣هـ) بعد سقوط الخلافة العباسية على يد التتار سنة ٦٥٦هـ، واعتدائهم على العلماء، وإحراقهم الكتب، وإغراقهم معظمها فى دجلة وسقطت الأندلس – كذلك – على يد الفرنجة سنة ٨٩٧ هـ فر من استطاع أن يفر من العلماء إلى مصر التى خضعت مع سوريا لنفوذ المماليك فاهتموا بهم وأكرموهم وأقاموا الكثير من المدارس والمساجد والمساكن لهم، فازدهر العلم، وقوى الاهتمام بدراسة اللغة العربية، فظهرت الموسوعات العلمية كصبح الأعشى للقلقشندى، ولسان العرب لابن منظور، والمزهر للسيوطى.

ثم جاء العصر التركى (٩٢٣ – ١٢١٣ هـ) فحاول نشر التركية فى البلاد العربية وجعلها لغة الدولة، ولم تحظ العربية باهتمامهم لكن الأزهر ظل قائما على أمرها ولذا فإن التأثير التركى جد قليل وقد بقيت منه آثار لا تزال جارية على ألسنتنا.

وفى هذين العصرين المملوكى والتركى كانت لغة المحادثة ضعيفة والعاميات فى كل مكان من الأرض العربية.

وتبعا لعوامل البيئات لاحظنا اختلافا بينا بين اللغة وهى تسير فى الشرق العربى وبين بلاد المغرب والأندلس وقد جاء ذلك واضحا فى كلام ابن خلدون الذى يقول: (أما أفريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكد يخلو عنهم مصر ولا جيل فغلبت العجمة فيها على اللسان العربى الذى كان لهم، وصارت لغة أخرى ممتزجة والعجمة فيها أغلب.. وكذلك المشرق لما غلب العرب على أممه من فارس والترك فخالطوهم، وتداولت بينهم لغاتهم فى الأكرة والفلاحين والسبى الذين اتخذوهم خولا وداياتٍ وأظآرا ومراضع، ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى، وكذا أهل الأندلس مع عجم الجلالقة والأفرنجية، وصار أهل الأمصار كلهم من هذه الأقاليم

أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مصر، ويخالف أيضا بعضهم بعضا كما نذكره وكأنه لغة أخرى لاستحكام ملكتها فى أجيالهم[1].

ثم قيض الله تعالى للغة العربية أن تجد العون فى العصر الحديث بعد الحملة الفرنسية التى نبهت الأذهان إلى الحضارات والعلوم الحديثة، ثم جاء عصر محمد على فأراد تكوين دولة حديثة له ولأسرته، فأرسلت البعوث إلى أوربا وأنشئت المدارس ولكن الاحتلال الإنجليزى جثم على صدر هذا الوطن سنين كانت لها آثارها السيئة، فلما قامت الثورة المصرية وتحققت حرية الأمة وكثرت المخترعات والصناعات وجدنا الاهتمام بالعربية يزداد إلى جانب العلوم الأخرى، فنهضت دراساتها وقوى شأنها، وظهرت فى الوطن العربى المجامع اللغوية لتجارى اللغة ما جد من مستحدثات.

ولكن العامية لا تزال قائمة فى بلاد الوطن العربى، ونحن نحاول تشخيص ظواهرها لعلاجها وإرجاعها إلى الأم الفصحى التى تعد السبيل إلى جمع شمل الأمة العربية، وإننا لمحققون ذلك بعون الله فى ضوء الدراسات التي يقوم بها علماء اللغة والحريصون عليها.

* * *

(١) مقدمة ابن خلدون ص٥٥٨، ٥٥٩.